قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ رواه مسلم

البناء العلمي

البناء العلمى

المرحلة الثانية

الفصل الدراسى الأول

السياسة الشرعية 4

د. صالح بن حميد

الدرس التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

{قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى: (وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ - كَالْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِمَا- يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ لَنَا دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ لَدَعَوْنَا بِهَا لِلسُّلْطَانِ. وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم: «إنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُم ثَلاثًا: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تَنَاصَحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ وَلُزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ: فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ». رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ» . قَالُوا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»)}.

- قال -رحمه الله تعالى: (وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ - كَالْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِمَا) إلى آخره.

قد خَتَمَ الشَّيخ هذا الكتاب المُبارك بالكلام عَن الولايات، وقال: إنَّ ولاية أمر النَّاس أمرٌ عظيم، وإنَّها مِن وَاجبات الدِّين؛ بل قال: إنَّه لا قِيام للدِّين ولا للدُّنيا إلَّا بها، وقد تكلمنا عَنْ هَذا في الجلسة الماضية، وتكلمنا كَذلك عَن قول النَّبي -صلى الله عليه وسلم: «إذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدَهُمْ» [١]، وقوله: «لَا يَحِلُّ لِثَلَاثَةٍ يَكُونُونَ بِفَلَاةٍ مِنْ الْأَرْضِ إلَّا أَمَّرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدَهُمْ» [٢].

وكما يُقال: إنَّ العمل المؤسَّسي -إن صحَّ التَّعبير- لابد وأن يكون العمل جماعيًا مُرتبًا، ويكون هناك طاعة وانقياد، وتوزيع في المسئوليَّات والصَّلاحيات، وبهذا يقوم الدين، وتقوم الدنيا.

- ثم قال هنا: (وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ - كَالْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ) وفي النُّسخة المُحققة: (وسهل بن عبد الله التُّسْتَري وغيرهم يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ لَنَا دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ لَدَعَوْنَا بِهَا لِلسُّلْطَانِ) ، ممَّا يَدلُّ عَلى عِظم

---

[١] رواه أبو داود عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وصححه الألباني في صحيح أبي داود .

[٢] السلسلة الضعيفة للألباني برقم 589

أثره، وأيضًا يَدلُّ عَلى نُصحهم، فإنَّه يَا إخوان مِن أَعظم النُّصح لولي الأمر أنْ تُحبه، أي: مَحَبَّة دِينيَّة، وأنْ تَنْصح له، وَمِن أعظم النُّصح له: الدُّعاء له.

- ثُمَّ أَورَدَ الشَّيخ هذا الحديث العجيب في هذه المطالب الثَّلاثة، وهي قوله -صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُم ثَلاثًا»
  - الأولى: «أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»
  - الثانية: «وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تفَرَّقُوا»
  - الثالثة: «وَأَنْ تَنَاصَحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ» ، وهذه الثَّلاثة فيها بناء الأُمَّة، بل فيها شُمول الحَقوق كُلها، وأولها حق الله -عزَّوجلَّ، قال: «أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» ، وإذا وَفَّق الله العبد أن يَقوم بحق الله عَلى وَجهه فغالبًا تَسْتَقِيم له الأمور كُلها، ولاشَكَّ أنَّ أَعظم حَق الله هُو العِبادة، أن يُعبد -سبحانه- ولا يُشرك به، **والعبادة مَبناها على أمرين:**
    1) الإخلاص لله تعالى.
    2) المتابعة للنَّبي صلى الله عليه وسلم.
- وليس هذا المقام مَقام بَسط لهذا الموضوع، لكنْ أَولى الأَوَّليَّات وأُولى المُهمات هُو حق الله -عزَّوجلَّ، ولهذا قال: «أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا».
- والحقُّ الثَّاني: «وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» هذا هُو حَقُّ الجماعة والمجتمع، وحقُّ المجتمع هو أن يعتصموا وأن ينبذوا الخلاف قَدر الإمكان؛ لأنَّه مِنَ المَعلوم أنَّ الخِلاف شَر؛ ولذا: تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقوا.
- والغريب في التَّوجيهين الكريمين، أنَّه في الأول قال: «أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» يعني: أَمْر وَنَهي، أي: أنَّه ذَكَرَ الأمَر ونبَّه على المفهوم المُخالف، مَع أنَّه لو قال: «تَعْبُدُوهُ» فهذا يتضمَّن «وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» لكنَّ التَّصريح بهذا يَدلُّ عَلى عِظم هذا الموضوع.
- وفي التَّوجيه الثَّاني في قوله: «وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» فمع أنَّ الاعتصام بحبل الله يُؤدِّي إلى عَدَمِ التَّفرق، لكن التَّنصيص على عَدم التَّفرق، يَدلُّ عَلى عِظم العِناية بهذا الأمر، ولهذا نجد أنَّ أي مجتمعٍ مَهما كَان ثَرَاؤه وَمَهما كَانَ تَعلُّمه إذا كَان مُتفرّقًا؛ فإنَّ حَاله في تَبَاين وفي خَسَار، فَحَقُّ المُجتمع أن يَجتمعوا، فإنَّ الخِلافَ شَرٌّ، والخِلافُ مَهلكةٌ.
- التَّوجيه الثَّالث، وهو الشاهد هُنا: «وَأَنْ تَنَاصَحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ» ، وهذا بابٌ عجيبٌ، وبابٌ واسعٌ، وأعظم مَا تَصْدُقُ به المُنَاصحة: الصِّدق، أي: أن تَكون صَادِقًا مَع وَلي الأمر، طبعًا مَعلوم أنَّ وَلي الأمر لا يَرى النَّاس كُلهم، لكن في عُنُقِكَ بَيْعة، وفي عُنُقِكَ سَمع وَطَاعة، مَهما كُنت بَعيدًا، ومَهما نَأَت بِكَ الدَّار عَن وَلي الأمر، فالتَّعلق به دِيَانة، مِن حَيث نُصحه، ومِن حَيث الصِّدق في طاعته، ومِن حَيث جَمع القُلوب عَليه، هذا مِنَ المُناصحة، فليس المُناصحة فقط في التَّوجهات الإرشاديَّة والكلاميَّة والكتابيَّة، هذا منها، ولكن المُناصحة

تعني: النُّصح وهو صِدق القَلب وصفاؤه وبياضه نحو ولي الأمر دِيَانَة وَيقينًا بَأنَّه لَن تَستَقيم الأمَّة إلَّا إذا كَانت مُجتمعة عَلى وَلِي أمرها، مَهما كان ولي الأمر مُقصِّرًا، وهذا قد يأتي عليه مَزيد كلام.

- وعلى هذا فمن أعظم مُناصحة ولي الأمر -إذا كنت صادقًا وجادًّا- هو أن تَجْمَعَ القُلوب عَليه، وأنا أحسب يا إخواني أنَّ وقتنا الحاضر بما فيه مِن فِتن ولاسيما مَنطقتنا الإسلاميَّة والعربيَّة عُمومًا، والشَّرق أوسطيَّة كما يقال: هل لاحظتم كيف صار الحال حينما انفلتت بَعضُ الأُمُور في بعض البلدان؟!
- إذن مِنْ أعظم المُنَاصحة: أن تَجمَعَ القلب على ولي الأمر بتأليف القلوب عليه؛ لأنَّ النَّقد غَير البَنَّاء، والكلام على المعايب كثير، وهذا لا يسلم منه أحد، حتى إنَّ المصطفى صلى الله عليه وسلم قال فِيه ذو الخويصرة: "اعدل يا رسول الله"[٣]، وهو المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي لا يُمكن أن يُشَكُّ فيه؛ لأنَّه معصوم ومبلّغ عن الله -عزَّ وجلَّ، وَمُؤيَّد، ومع هذا جَاء مَن يَقول له: "اعدل"، ومع هذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَرْحَمُ اللَّهُ أَخِي مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»[٤]، فلا تَتَصور أنَّه لا تُوجد مُلاحظات أو نَقدٍ عَلى ولي الأمر وَنُوَّابه، ولهذا كانَ جَمعُ القُلوب عَليه، وتأليف القلوب على الأُمَّة وعلى وُلاة أمرها أعظم البناء وأعظم النُّصح.
- وليس مِن النَّصيحة بلاشكٍ أن تملأ القُلوب حِقدًا عَليه، ولهذا -مع الأسف- قد يكون هناك مُغرضون -وأنا لا أتكلم فقط عن هذه البلاد فقط، بل أتكلم عن كل البلاد- فقد يكون هناك مُغرضون يُحاولون التَّهييج وإثارة أهلهم على ولي أمرهم.
- كذلك مِن المُنَاصحة والنُّصح لولي الأمر الدُّعاء له، ولهذا نقل الشَّيخ عن السَّلف: (لَوْ كَانَ لَنَا دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ لَدَعَوْنَا بِهَا لِلسُّلْطَانِ).

فالدُّعاء سلاح، ولا تظنَّ أنَّك إذا دَعَوتَ تَنفَع مَن تَدعو له فقط، بل تنفع نفسك أيضًا؛ لأنَّه يَدلُّ على صَفاء قَلبك، ويدلُّ على دِيَانتك وإيمانك، ويدلّ كذلك على تَعَلُّقك بالله -عزَّ وجلَّ. فالدُّعاء أَثَرُه في الإيمان عَجيب، وَأَثَرُه في صَلاح القَلبِ عَجيب، وَأَثَرُه كذلك في السَّكِينة التي تَتَنَزلُ عَلى الدَّاعي وليس للمدعو له فقط عجيب، فأنت حينما يُلهِمك الله الدُّعاء، سواء لولي الأمر، أو لوالديك، أو لمن تحب، أو للمرضى، أو للمحتاجين، أو للفقراء، أو لأصحاب الابتلاءات؛ فهذا كله من فضل الله عليك أنت أولًا، وهذا هو دلائل النَّصيحة.

فالنُّصح هو صفاء القلب، ومن أعظم النُّصح أن تدعو لولي الأمر بصدق، لاسيما أنَّك تدعو له بظهر الغيب وهو لا يراك، تدعو له بينك وبين ربِّك، وهذا يحفظ الله -عزَّ وجلَّ- به الأُمَّة، ويحفظ به المجتمع.

---

[٣] البخاري (3610) ومسلم (1064) عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْسِمُ قِسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ، فَقَالَ: (وَيْلَكَ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟! قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ)، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ: (دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ (أي تضطرب) وَيَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ النَّاسِ).

[٤] البخاري (2934) ومسلم (1766) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَسْمًا، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ عِنْدِهِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذَا قَسْمٌ مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَدَّثْتُهُ بِمَا قَالَ، فَاحْمَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ: "يَرْحَمُ اللَّهُ أَخِي مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ". فَآلَيْتُ أَنْ لا أُبَلِّغَهُ شَيْئًا أَبَدًا

- ومن ذلك أيضًا إذا كان لك وصول إلى ولي الأمر فتنصحه مُشافهةً أو مُكاتبةً إن تَيَسَّر، وإذ لم تستطع -وهذا طبعًا وارد لاشك- لأنَّه ليس يُخَوَّل لِكُلِّ أحدٍ أن يَصِلَ لولي الأمر نظرًا لانشغالاته ولكثرة أعداد الرعيَّة، فأعدادها بالملايين كما تعرفون.

إذن إمَّا أن تكتب له مُباشرة، على حسب وسائل الاتصال، أو تكتب لمن يُوَصِّل له، أو تُبَلِّغ من الكبراء والوجهاء والعلماء شَفَهيًّا مَن يُوَصِّل، فهذا كله من النَّصيحة. ولذا كان باب النَّصيحة في هذا واسعًا.

- ثم قال صلى الله عليه وسلم: «ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: خِلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»[٥].

- أيضًا هذا يكاد يكون مِن عناصر الحديث الذي قَبله.
  - ❖ **الأوَّل:** إخلاص العمل لله، هذا حقُّ الله -عزَّ وجلَّ، وبينك وبين الله -عزَّ وجلَّ.
  - ❖ **الثَّاني:** مُناصحة وُلاة الأمر، هذا هو الشَّاهد هنا.
  - ❖ **الثَّالث:** لزوم الجماعة، يعني: أن تتمسكوا به، وأن تعضُّوا عليه بالنَّواجذ، ويكفي مَا تَرونه مِن الفتن المحيطة.

- وفي الصحيح أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ» ، يعني قالها ثلاثًا، (قَالُوا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»).

فلاحظ أنَّه قال: النَّصيحة لله، والنَّصيحة لكتابه، والنَّصيحة لرسوله، والنَّصيحة لأئمَّة المسلمين.

والنَّصيحة بمعنى الصِّدق، فتنصح لله بمعنى أن تُطيع الله -عزَّ وجلَّ- بصدق وإخلاص، وأن تؤدِّي حقَّ الله -عزَّ وجلَّ- على وجهه، وللرَّسول كذلك بالمتابعة، وللكتاب كذلك بالمتابعة، ولزوم حدود القرآن.

ونصح لأئمَّة المسلمين، بمعنى الصِّدق في العَلاقة بِهم، مِن الدُّعاء لهم -كما قلنا- ومِن جَمْع القُلوب عليهم، ومِن المُكاتبة أو المشافهة لَهم إذا كنت تقدر أن تَصل، أو بالواسطة -كما قلنا.

والعامَّة كذلك لهم حقٌّ لاشك، النُّصح للعَامة مِن حَيث حبِّهم، والدُّعاء لهم، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكر إلى آخِره.

- هناك سقط في النُّسخة المحقَّقة، تقريبًا حوالي ستَّة أسطر، لا مانع أن نَسمعها مِنَ الإخوان، قال المؤلف: (وإن كان أكثرُ مَن يَدخل فِيها لا يَقصد العبادة) ، يقصد يدخلون في الولاية، وقال الشيخ: إنَّ الولاية دين، وسوف يأتي معنا أيضًا التَّأكيد على أنَّها يدخلها دِيانة.

الولاية طبعًا سواء كانت الإمامة العظمى، أو مَا تحتها مِن نُوَّاب الإمام والولاة من الوزارات والقضاء وأئمة المساجد ورجال الحِسبة، وكلُّ مَن يُولِّيه الإمام، حتى المعلمين والمدرسين، كل هؤلاء نُوَّاب بقدر مَسئوليَّاتهم.

- فقال: (وإن كان من أكثر من يدخل فيها) يعني: في الولاية (لا يقصد العبادة والتقرب، بل لما في النفوس من حبِّ الشَّرف والعلو، فكما أن أكثر من يأكل ويشرب وينكح لا يقصد العبادة المحضة، وهو من الواجبات.

---

[٥] صححه الألباني في صحيح الترمذي عن عبدالله بن مسعود (2658)

بل من أكثر من يؤدي الأمانات الظاهرة، كقضاء دين النَّاس، وما عنده من أموال المضاربة إنما يقصد بها قيام حرمته والجاه عندهم، وهي من الواجبات أيضًا، فناظره كثير)، بمعنى أنهم أحيانًا لا يقصدون به أداء الحقوق، بقدر ما يَقصدون به السُّمعَة والحظوة عند النَّاس.

{قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى: (فَالْوَاجِبُ اتِّخَاذُ الْإِمَارَةِ دِينًا وَقُرْبَةً يُتَقَرَّبُ بِهَا إلَى اللَّهِ؛ فَإِنَّ التَّقَرُّبَ إلَيْهِ فِيهَا بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ مِنْ أَفْضَلِ الْقُرُبَاتِ. وَإِنَّمَا يَفْسُدُ فِيهَا حَالُ أَكْثَرِ النَّاسِ لِابْتِغَاءِ الرِّئَاسَةِ أَوْ الْمَالِ بِهَا. وَقَدْ رَوَى كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قال: «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ»[٦]. قَالَ التِّرْمِذِيُّ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. فَأَخْبَرَ أَنَّ حِرْصَ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالرِّيَاسَةِ يُفْسِدُ دينه، مثل أو أكثر من إفساد الذِّئْبَيْنِ الْجَائِعَيْنِ لِزَرِيبَةِ الْغَنَمِ.

وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تعالى عن الذي يؤتى كتابه بشماله أنه يَقُولُ: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: 28 - 29].

وَغَايَةُ مُرِيدِ الرِّيَاسَةِ أَنْ يَكُونَ كَفِرْعَوْنَ، وَجَامِعِ الْمَالِ أَنْ يَكُونَ كَقَارُونَ، وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ حَالَ فِرْعَوْنَ وَقَارُونَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: 21]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83]).}

- هذا أيضًا موقفٌ مُهمٌّ مِن الشَّيخ -رحمه الله- وهو عجيب بالفعل بل هو ميزان للعبد، وخاصَّة مَن ابتُلي بالولايات وبالوظائف العامَّة والخاصَّة، فمن ابتُلي بها فلينظر إلى حَاله ممَّا ذَكره الشَّيخ.
- فقال: (فَالْوَاجِبُ اتِّخَاذُ الْإِمَارَةِ) الإمارة سواء كانت الولاية العامَّة -كما قلنا- أو أي مسئوليَّة، (فَالْوَاجِبُ اتِّخَاذُ الْإِمَارَةِ دِينًا وَقُرْبَةً) أي: مسئوليَّة تتقرَّب بها إلى الله -عزَّ وجلَّ، بمعنى تتقرَّب إلى الله بخدمة النَّاس، تتقرَّب إلى الله بأدائها على وجهها، بأمانةٍ وكفاءةٍ وكفايةٍ وقوةٍ وحفظ لحقوق النَّاس، وحفظ لكل ما تتعلَّق به هذه الولاية من مسئوليَّات وصلاحيات (فَالْوَاجِبُ اتِّخَاذُ الْإِمَارَةِ دِينًا وَقُرْبَةً يُتَقَرَّبُ بِهَا إلَى اللَّهِ).
- قال: (فَإِنَّ التَّقَرُّبَ إلَيْهِ فِيهَا بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ مِنْ أَفْضَلِ الْقُرُبَاتِ)، وهذا موقف عجيب، وينبغي أن يكون محل تأمل، قال: (وَإِنَّمَا يَفْسُدُ فِيهَا حَالُ أَكْثَرِ النَّاسِ) لماذا؟ (لِابْتِغَاءِ الرِّئَاسَةِ أَوْ الْمَالِ بِهَا) بمعنى المناصب، فمَن فَسَدَت أو انحرفت نيَّته، فإمَّا أنَّه يَقصد الشَّرف والجَاه والحظوة عند النَّاس، وإمَّا أنَّه يقصد المال، وفي هذا فساد مالي عجيب، فإمَّا أنَّه يُريد الكسب غير المشروع، وإمَّا أنَّه يريد الوجاهة، أو علوّ المنزلة عند النَّاس، فلاشك أنَّ المناصب مليئة بالإغراءات، سواء الماليَّة أو المناصبيَّة -إن صحَّ التَّعبير- ولهذا قال: (وَإِنَّمَا يَفْسُدُ فِيهَا حَالُ أَكْثَرِ النَّاسِ لِابْتِغَاءِ الرِّئَاسَةِ أَوْ الْمَالِ بِهَا).

---

[٦] أخرجه أبو داود والترمذي وصححه الألباني في صحيحي أبي داود والترمذي

- (وَقَدْ رَوَى كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قال: «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ» [٧]) وعجيب هذا التَّمثيل يا مشايخ، فاللهمَّ صلِّ على محمد، فحرص المرء على المال والشَّرف يفسد الدين، والحرص يُقصد به الحرص القلبي، وحرص الجدِّ والطَّمع، وتعلُّق بالقلب -نسأل الله السلامة. إذا كان تعلقه بالجاه والمناصب، والحظوة عند النَّاس، وحصول الوجاهات، أو الكسب غير المشروع، وهذا أعظم مُفسدات الدين.
- فأخبر النَّبي صلى الله عليه وسلم (أَنَّ حِرْصَ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالرِّيَاسَةِ يُفْسِدُ دينه، أكثر من إفساد الذِّئْبَيْنِ الْجَائِعِينَ لِزَرِيبَةِ الْغَنَمِ) تصور ذئبان جائعان وقعا في زريبة، والغنم فيها محصورة، فالذئب يأكل ويفسد ويقتل.
- (وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تعالى عن الذي يؤتى كتابه بشماله أنه يَقُولُ: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: 28 - 29]) استشهادات الشيخ عجيبة، واستحضاره للأدلة والمناسبات عجيبة، يقول يوم القيامة: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ﴾ ممَّا يدلَّ على أنَّ الذي أفْسَدَهُ هو المال؛ لأنَّه لم يبتغِ بالمال وجه الله ، وإنما ابتغى به الكسب غير المشروع، وابتغى به أمورًا غير مشروعة، وكذلك السلطان ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾.
- (وَغَايَةُ مُرِيدِ الرِّيَاسَةِ) وهذا أيضًا استشهاد عجيب من الشَّيخ، (أَنْ يَكُونَ كَفِرْعَوْنَ) ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ [غافر: 29]، ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: 24].
- (وَجَامِعِ الْمَالِ أَنْ يَكُونَ كَقَارُونَ) ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: 78]، (وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ حَالَ فِرْعَوْنَ وَقَارُونَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾) لأنَّه قالها بعد قصة موسى وآل فرعون مع مؤمن آل فرعون، وقبل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: 23، 24]، فذكر هنا قصَّة فرعون وهامان وقارون كما ذكر الله -عزَّ وجلَّ. والآية الأخرى في سورة القصص: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا﴾ [القصص: 83]، طبعًا فيها قصَّة فرعون وقصَّة قارون، فهم أرادوا علوًّا دنيويًّا، ولكن علوهم هذا علوٌّ فاشل، والعلو الحقيقي هو لمن أراد الله والدَّار الآخرة. ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

{قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى: (فَإِنَّ النَّاسَ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ:
الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: يُرِيدُونَ العلوَّ على النَّاس، والفسادَ في الأرضِ وهو مَعْصِيَةُ اللَّهِ، وَهَؤُلَاءِ الْمُلُوكُ وَالرُّؤَسَاءُ الْمُفْسِدُونَ، كَفِرْعَوْنَ وحزبه. وهؤلاء هم شِرار الْخَلْقِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 4].
وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذَرَّةٌ مِنْ إيمَانٍ» . فَقَالَ رَجُلٌ يَا

---

[٧] تقدم تخريجه في (6)

رَسُولَ الله: إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي حَسَنًا، وَنَعْلِي حَسَنًا، أَفَمِنْ الْكِبْرِ ذَاكَ؟ قَالَ: «لَا: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ» فَبَطَرُ الْحَقِّ دَفْعُهُ وَجَحْدُهُ. وَغَمْطُ النَّاسِ احْتِقَارُهُمْ وَازْدِرَاؤُهُمْ، وَهَذَا حَالُ مَنْ يُرِيدُ الْعُلُوَّ وَالْفَسَادَ.

وَالْقِسْمُ الثَّانِي: الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْفَسَادَ، بلا علو، كالسراق والمجرمين من سفلة الناس.

والقسم الثالث: يريدون الْعُلُوَّ بِلَا فَسَادٍ، كَالَّذِينَ عِنْدَهُمْ دِينٌ يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلُوَا بِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنْ النَّاسِ.

وأمَّا الْقِسْمُ الرَّابِعُ: فَهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا، مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ يَكُونُونَ أَعْلَى مِنْ غَيْرِهِمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 139]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: 35]. وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8])}.

- طبعًا هو يتكلَّم عن الولاية، والحرص عليها، والحرص على الشَّرف، فقال: (فَإِنَّ النَّاسَ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ:
- الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: يُرِيدُونَ العلو على النَّاس، والفساد في الأرض) وهذا هو الطريق الفرعوني، فمن كانت هذه إرادته، فهو على سُنَّة فرعون، يريدون العلو على النَّاس، والفساد في الأرض، قال: (وهو مَعْصِيَةُ اللَّهِ).
- قال: (وَهَؤُلَاءِ الْمُلُوكُ وَالرُّؤَسَاءُ الْمُفْسِدُونَ، كَفِرْعَوْنَ وحزبه ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾)، إذن علو فرعون هو علو بطر وعلو فساد، ولهذا قال في علوه: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾.
- وضَّح الشَّيخ المراد بالعلو، فقال: (فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ الله: إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي حَسَنًا، وَنَعْلِي حَسَنًا، أَفَمِنْ الْكِبْرِ ذَاكَ؟ قَالَ: «لَا: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ») الجمال يعني التجمل.

«الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ» هذا هو المقصود، بمعنى أن يترفع الإنسان عن الدَّنَايَا، ويحبُّ الجمال، ويحبُّ الشَّيء الطَّيب، وأن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنًا، هذا ليس من الكبر، وليس من العلو المذموم.

- قال: (فَبَطَرُ الْحَقِّ دَفْعُهُ وَجَحْدُهُ. وَغَمْطُ النَّاسِ احْتِقَارُهُمْ وَازْدِرَاؤُهُمْ).

والقسم الثاني: يريدون فَسَادًا بلا علو، وهؤلاء كما قال: (كالسُّرَّاق والمجرمين من سفلة الناس) الذين يفسدون فقط، وليس لهم علو؛ لأنَّهم سُرَّاق وبغاة وظلمة.

- (والقسم الثالث: يريدون الْعُلُوَّ بِلَا فَسَادٍ) يعني دنيوي محض من غير فساد، (كَالَّذِينَ عِنْدَهُمْ دِينٌ يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلُوَا بِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنْ النَّاسِ) يعني هو يريد علوًّا، لكن ما يفسد، فهو له ميول دنيويَّة، يريد أن يعلو بجاهٍ، يعلو بمنصبٍ، يعلو بتزلفٍ عند النَّاس، فهذا ليس كالأوَّل، ولا كالثَّاني، ولهذا قال: (عِنْدَهُمْ دِينٌ) لكنَّه يريد أن يعلو به على غيره من النَّاس.
- (وأمَّا الْقِسْمُ الرَّابِعُ: فَهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا) ولهذا قال في آية القصص: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾.

- مع أنَّهم قد يكونون أعلى من غيرهم؛ بل هم أعلى من غيرهم حقيقة، المؤمن أعلى من غيره مهما كان، مهما كان حاله من ضعفٍ أو فقرٍ، أو بُعْدٍ عن النَّاسِ، أو تواضعٍ، أو عدم شهرة في النَّاس، فالله -عزَّوجلَّ- رفعه ولهذا قال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ فالمؤمن هو الأعلى، مادام أنه مؤمن.
وأيضًا قال: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: 35] وأيضًا: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ [المجادلة: 11]، فهذا لاشك أنَّه علوٌّ جاء نتيجة التَّقوى والصَّلاح والإخلاص، والتزام أحكام الشَّرع، ولاسيما حبُّ النَّاس، والأخلاق الفاضلة، التي تجعله يحب النَّاس ويحب الخير لهم، ويحب المعروف فيهم، إلى آخره.

{قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فَكَمْ مِمَّنْ يُرِيدُ الْعُلُوَّ، وَلَا يَزِيدُهُ ذَلِكَ إلَّا سُفُولًا، وَكَمْ مِمَّنْ جُعِلَ مِنْ الْأَعْلَيْنَ وَهُوَ لَا يُرِيدُ الْعُلُوَّ وَلَا الْفَسَادَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ إرَادَةَ الْعُلُوِّ عَلَى الْخَلْقِ ظُلْمٌ: لِأَنَّ النَّاسَ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ. فَإِرَادَةُ الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْأَعْلَى وَنَظِيرُهُ تَحْتَهُ ظُلْمٌ. وَمَعَ أَنَّهُ ظلم فَالنَّاسُ يُبْغِضُونَ مَنْ يَكُونُ كَذَلِكَ وَيُعَادُونَهُ؛ لِأَنَّ الْعَادِلَ مِنْهُمْ لَا يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ مَقْهُورًا لِنَظِيرِهِ، وَغَيْرُ الْعَادِلِ مِنْهُمْ يُؤْثِرُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْقَاهِرَ. ثُمَّ إنَّهُ مَعَ هذا لا بد لهم -فِي الْعَقْلِ وَالدِّينِ- مِنْ أَنْ يَكُونَ بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ، كَمَا أَنَّ الْجَسَدَ لَا يَصْلُحُ إلَّا بِرَأْسٍ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: 165]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: 32]. فَجَاءَتْ الشَّرِيعَةُ بِصَرْفِ السُّلْطَانِ وَالْمَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)}.

- أيضًا هذا توضيح جميل من الشَّيخ للعلو، قال: (فَكَمْ مِمَّنْ يُرِيدُ الْعُلُوَّ، وَلَا يَزِيدُهُ ذَلِكَ إلَّا سُفُولًا) بمعنى أنَّه لا يريد العلو، ولكن لسوء نيَّته وسوء عمله يزداد عند النَّاس سفالة، كالمتكبر تستحقره النَّاس -كما هو معلوم.
- (وَكَمْ مِمَّنْ جُعِلَ) يعني: جعله الله (مِنْ الْأَعْلَيْنَ وَهُوَ لَا يُرِيدُ الْعُلُوَّ وَلَا الْفَسَادَ) ؛ لأنَّه صالحٌ مُصلحٌ تقيٌّ ورعٌ، محبٌّ للنَّاس، ومحبٌّ للخير، مؤثرٌ للخيرات للنَّاس، إلى آخره.
- قال: (وَذَلِكَ لِأَنَّ إرَادَةَ الْعُلُوِّ عَلَى الْخَلْقِ ظُلْمٌ) وهذا أحسب أنَّه من أعظم القواعد لماذا؟ لأنَّ النَّاس سواسية، فإن أردتَّ أن تعلو عليهم فهذا يعني أنَّك تريد أن ترفع منزلتك وتأخذ شيئًا ليس لك، وأن تحتقر النَّاس.
- قال: (لِأَنَّ النَّاسَ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ. فَإِرَادَةُ الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْأَعْلَى وَنَظِيرُهُ تَحْتَهُ ظُلْمٌ. وَمَعَ أَنَّهُ ظلم فَالنَّاسُ يُبْغِضُونَ مَنْ يَكُونُ كَذَلِكَ وَيُعَادُونَهُ) بمعنى يكون أسفل؛ (لِأَنَّ الْعَادِلَ مِنْهُمْ لَا يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ مَقْهُورًا لِنَظِيرِهِ، وَغَيْرُ الْعَادِلِ مِنْهُمْ يُؤْثِرُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْقَاهِرَ) وهناك في النُّسخة المحقَّقة مزيد بسطٍ بمقدار ستَّةِ أسطرٍ، يقول: (فمريد العلو فسد عليه دينه ودنياه بظلم النَّاس، ومعاداتهم لذلك. فيحتاج لذلك إلى أعوانه يدفعون عداءه، والأعوان في الحقيقة أعداء له. إنَّما يعينونه لما ينالوه من أهوائهم. فلهذا كان مَن طلب الرئاسة إليه أحمق جاهلًا) يعني مَن طلب التَّقرب إلى هذا الرَّئيس أحمقٌ جاهلٌ، (وإنَّما المطلوب

منها ما يدفع به الإنسان عنه الضرر في دينه ودنياه، وهو في الحقيقة دفع علو غيره عنه بالباطل، لا إرادة منه علوًا على غيره، إلا برئاسة).

- فالمقصود بالفعل أنَّ إرادة العلوّ على الخلق ظلم، لكن نبَّه الشَّيخ إلى شيءٍ آخرٍ، وهو: أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- جعل النَّاس متفاوتين في العقل والدِّين، وجعل بعضهم فوق بعض سُخْرِيًّا، لكن هذا التَّفاوت الطَّبقي في المعيشة لا يُخوّلِهم أن يتفاوتوا في المُساواة البشريَّة؛ لأنَّ الله جعل النَّاس شُعوبًا وقبائل ليتعارفوا، أمَّا التَّفاوت الطَّبقي في المنازل فهو كالعمل، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ [الأنعام: 165]، والآية الأخرى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: 32]، بمعنى ليخدم بعضهم بعضًا، لكن ومع هذا ليس للسَّيدِ فضلٌ على الخادمِ من حيث الإنسانيَّة، إنَّما يتفاوتون في المؤهِّلات، وفيما فاضلهم الله به من أرزاقهم، أو من وظائفهم، أو من أعمالهم، لكن يبقون متساوين من حيث الإنسانيَّة، ومن حيث الحقوق العامَّة، حتى الحقوق الدِّينيَّة.

{قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة -رحمه الله تعالى: (فَإِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ بِالسُّلْطَانِ وَالْمَالِ هُوَ التَّقَرُّبَ إلَى اللَّهِ وَإِنْفَاقَ ذَلِكَ فِي سَبِيلِهِ، كَانَ ذَلِكَ صَلَاحَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا. وَإِنْ انْفَرَدَ السُّلْطَانُ عَنْ الدِّينِ، أَوْ الدِّينُ عَنْ السُّلْطَانِ فَسَدَتْ أَحْوَالُ النَّاسِ، وَإِنَّمَا يَمْتَازُ أَهْلُ طَاعَةِ اللَّهِ عَنْ أَهْلِ مَعْصِيَتِهِ بِالنِّيَّةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إلَى صُوَرِكُمْ وَلَا إلَى أَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إلَى قلوبكم وأعمالكم».

وَلَمَّا غَلَبَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ وُلَاةِ الْأُمُورِ إرادة المال والشرف، وصاروا بمعزل عن حقيقة الإيمان في ولايتهم: رأى كثير من الناس أن الإمارة تنافي الْإِيمَانِ وَكَمَالِ الدِّينِ.

ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ غَلَّبَ الدِّينَ وَأَعْرَض عَمَّا لَا يَتِمُّ الدِّينُ إلَّا بِهِ مِنْ ذَلِكَ. وَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى حَاجَتَهُ إلَى ذَلِكَ، فَأَخَذَهُ مُعْرِضًا عَنْ الدِّينِ: لِاعْتِقَادِهِ أَنَّهُ مُنَافٍ لِذَلِكَ، وَصَارَ الدِّينُ عِنْدَهُ فِي مَحَلِّ الرَّحْمَةِ وَالذُّلِّ. لَا فِي مَحَلِّ الْعُلُوِّ وَالْعِزِّ. وَكَذَلِكَ لَمَّا غَلَبَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أهل الديانتين، العجز عن تَكْمِيلِ الدِّينِ، وَالْجَزَعُ لِمَا قَدْ يُصِيبُهُمْ فِي إقَامَتِهِ مِنْ الْبَلَاءِ: اسْتَضْعَفَ طَرِيقَتَهُمْ وَاسْتَذَلَّهَا مَنْ رَأَى أَنَّهُ لَا تَقُومُ مَصْلَحَتُهُ وَمَصْلَحَةُ غَيْرِهِ بِهَا.

وَهَاتَانِ السَّبِيلَانِ الْفَاسِدَتَانِ -سَبِيلُ مَنْ انْتَسَبَ إلَى الدِّينِ وَلَمْ يُكَمِّلْهُ بِمَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ مِنْ السُّلْطَانِ وَالْجِهَادِ وَالْمَالِ، وَسَبِيلِ مِنْ أَقْبَلَ عَلَى السُّلْطَانِ وَالْمَالِ وَالْحَرْبِ، وَلَمْ يَقْصِدْ بِذَلِكَ إقَامَةَ الدِّينِ- هُمَا سَبِيلُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ. الأولى للضالين النصارى، الثانية لِلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ الْيَهُودُ)}.

- هنا بسطٌ لقضيَّة العَلاقة بين الدِّين والسُّلطان، وابتغاء السُّلطة والدِّين والتَّدين، والتَّقرب إلى الله -عزَّ وجلَّ- بذلك، قال: (فَإِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ بِالسُّلْطَانِ وَالْمَالِ هُوَ التَّقَرُّبَ إلَى اللَّهِ وَإِنْفَاقَ ذَلِكَ فِي سَبِيلِهِ، كَانَ ذَلِكَ صَلَاحَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا) هذا هو التَّفسير لكلِّ الكلام السَّابق، أن يريد بولايته دينًا وقُربةً، يعني أن يقصد بالسُّلطان والمالِ إقامةَ الدِّين وإنفاقِ ذلك في سبيلِ الله، فيكون بذلك صلاح الدِّين والدُّنيا.
- (وَإِنْ انْفَرَدَ السُّلْطَانُ عَنْ الدِّينِ، أَوْ الدِّينُ عَنْ السُّلْطَانِ فَسَدَتْ أَحْوَالُ النَّاسِ) يعني يكون التَّمام بانضمام السُّلطان إلى الدِّين، والدِّين إلى السُّلطان، يعني قوَّة السُّلطان وقوَّة الدِّين.

- (وَإِنَّمَا يَمْتَازُ أَهْلُ طَاعَةِ اللَّهِ عَنْ أَهْلِ مَعْصِيَتِهِ) بأمرين: (بِالنِّيَّةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قلوبكم وأعمالكم»)، فإذا أردتَّ حقيقة أن تختبر نفسك أين موقفك من هذا كله؛ فانظر إلى ما في قلبك، وانظر إلى عملك، فالنِّيَّةُ وحدها لا تكفي، والعملُ الصَّالح من غيرِ نيَّةٍ كذلك لا يكفي، فلابدَّ أن يجتمع الأمران -النِّيَّة الصَّالحة والعمل الصَّالح.
- ولذلك قال: (وَلَمَّا غَلَبَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ وُلَاةِ الْأُمُورِ إرادة المال والشرف، وصاروا بمعزل عن حقيقة الإيمان في ولايتهم) وهذا ميزان ومعيار، يعني إذا توجَّه الولاة إلى قصد إرادة المال والشَّرف، وانصرفوا عن حقيقة الإيمان في ولايتهم؛ حصل الخلل بقدر ما يحصل من بُعْدهم عن الدِّين.
- قال: (ورَأَى كَثِيرٌ مِن النَّاسِ أَنَّ الإمَارة تُنافي الْإِيمَانِ وَكَمَالِ الدِّينِ) يعني كأنَّهم فعلًا يريدون أن يجعلوا تباينًا بين الدِّين والسُّلطان، وأنَّه لا يُتَصوَّر أن يكون سلطانٌ ووالٍ وأن تظهر عليه علامات الصَّلاح والتَّدين والاستقامة.
- قال: (ورأى كثير من النَّاس أنَّ الإمارات تنافي الْإِيمَانِ وَكَمَالِ الدِّينِ، ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ غَلَّبَ الدِّينَ وَأَعْرَضَ عَمَّا لَا يَتِمُّ الدِّينُ إلَّا بِهِ مِنْ ذَلِكَ. وَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى حَاجَتَهُ إلَى ذَلِكَ، فَأَخَذَهُ مُعْرِضًا عَنْ الدِّينِ: لِاعْتِقَادِهِ أَنَّهُ مُنَافٍ لِذَلِكَ، وَصَارَ الدِّينُ عِنْدَهُ فِي مَحَلِّ الرَّحْمَةِ وَالذُّلِّ) فعلًا بعض النَّاس ولا سيما أصحاب الوجاهات والمقامات، ينظرون إلى المتدين بعين الشَّفقة، وبعين الرَّحمة، وغريبة نظرة الشَّيخ -وإن صحَّ التَّعبير- وحسُّه الاجتماعي، فعنده حسٌّ اجتماعيٌّ عجيبٌ لأنَّه يعيش مع النَّاس.
- (وَصَارَ الدِّينُ عِنْدَهُ فِي مَحَلِّ الرَّحْمَةِ وَالذُّلِّ، لَا فِي مَحَلِّ الْعُلُوِّ وَالْعِزِّ) طبعًا هذا تصور خاطئ، لكنَّه يرى أنَّ مَن سلكَ مسالك الدِّين لابدَّ أن تكون عليه المسكنة، ويكون عليه الضَّعف، ويكون عليه الذُّل، ولاشكَّ أنَّ هذه نظرةٌ خاطئة وغير صحيحة، وأيضًا مع الأسف يكون لها أثر سلبي، وإلا العلو والشرف في الدِّين.
- قال: (وَكَذَلِكَ لَمَّا غَلَبَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أهل الديانتين) لعله يقصد اليهود والنصارى (العجز عن تَكْمِيلِ الدِّينِ، وَالْجَزَعُ لِمَا قَدْ يُصِيبُهُمْ فِي إقَامَتِهِ مِنْ الْبَلَاءِ: اسْتَضْعَفَ طَرِيقَتَهُمْ وَاسْتَذَلَّهَا مَنْ رَأَى أَنَّهُ لَا تَقُومُ مَصْلَحَتُهُ وَمَصْلَحَةُ غَيْرِهِ بِهَا)، ولهذا انحرف عن الدِّين، وانحرف عن الاستقامة.
- ثم قال: (وَهَاتَانِ السَّبِيلَانِ الْفَاسِدَتَانِ -سَبِيلُ مَنْ انْتَسَبَ إلَى الدِّينِ وَلَمْ يُكْمِلْهُ بِمَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ مِنْ السُّلْطَانِ وَالْجِهَادِ وَالْمَالِ، وَسَبِيلِ مِنْ أَقْبَلَ عَلَى السُّلْطَانِ وَالْمَالِ وَالْحَرْبِ، وَلَمْ يَقْصِدْ بِذَلِكَ إقَامَةَ الدِّينِ- هُمَا سَبِيلُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ).

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

